الجزء الأول المجلد السابع والثلاثون

مجلة المجمع العلمي العراقي

جمادى الآخرة ١٤٠٦ هـ
آذار ١٩٨٦ م

التحوّل والثبات في أصوات العربية

الدكتور
حسام سعيد النعيمي
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

الدراسة الصوتية :

لقيت اصوات العربية من العلماء قديما وحديثا من العناية في بيان صفاتها ومخارجها وتعاملها ماجعلها واضحة بينة يستطيع الدارس بتأمله أن يحكم بموافقة أى صوت لما نطقت به العرب أو مخالفته ذلك .

وكان من اوائل من عني بالكلام على اصوات العربية علماء اللغة والنحو ، فالخليل بن احمد الفراهيدي (ت ١٧٥ هـ) ذكر في كتاب العين ، صفات الحروف ومخارجها وعددا من القوانين الصوتية المتعلقة بها (١) ، هذا على أن جمهور الشكّين في نسبته اليه يميلون الى القول بأنه بدأ الكتاب ، واعملت الايدى فيه من بعد (٢) ، ولذا وقفنا عند مقدمته ، ولو ثبت كل مافي « العين» للخليل لافاد الباحث كثيرا مما ورد فيه من المسائل المتعلقة بتعامل الاصوات وتأثير بعضها في بعض (٣) .

على ان فيما كتبه تلميذه سيبويه (١٨٠ هـ) مايغني ، وكتاب سيبويه أجمع العلماء على صحة نسبته اليه وتلقوه بالقبول من غير أن يكترثوا لكلمات

(١) كتاب العين ـ للخليل بن احمد الفراهيدي ، تحقيق د. مهدي المخزومي و د. ابراهيم السامرائي ، دار الرشيد للنشر ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م ، انظر الصفحات ٥٤ ـ ٥٨ .

(٢) المعجم العربي ـ د. حسين نصار ، ط ١ ١٩٧٦م ، ص ٢٦٥ .

(٣) انظر تحقيق ذلك في : « الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني » ـ د. حسام سعيد النعيمي ، دار الرشيد ١٩٨٠م ، ص ٥٢ ـ ٥٤ .

قيلت فيه بسبب الانبهار أو الحسد أو كليهما (٤) ، وقد تكلم سيبويه في باب الادغام (٥) على مخارج الحروف وصفاتها وتعاملها كلاهما فيه من الدقة والاحاطة والشمول مايجعل الدارس يرى اثره واضحا جليا في كل ما كتب بعده في هذا الباب ، ولئن كان الجاحظ قد قال في الكتاب ان كل ما كتب في النحو بعده عليه عيال (٦) . فاننا نستطيع أن نقول باطمئنان ان كل ما كتب في مخارج الحروف العربية وصفاتها وتعاملها بعد كتاب سيبويه عليه عيال . على اننا لانريد أن نبخس العلماء حقهم فلئن كان له فضل السبق لقد كان لهم فضل التفصيل والتطبيق والاكثار من الشواهد وافراد الكتب للدراسة الصوتية كما صنع ابن جني (ت ٣٩٢ هـ) في كتابه « سر صناعة الاعراب » ، وكما صنع ابن سينا الطبيب (ت ٤٢٨ هـ) في رسالته الصغيرة اسباب حدوث الحروف ، وكما صنع علماء التجويد فيما بعد حيث وقفوا كل جهدهم لضبط اصوات العربية والعناية بنطقها ، وتحقيقها على ما كانت العرب تنطقه حين تنزّل القرآن الكريم ، فكان لهم فضل تثبيت هذه الاصوات ونقلها مشافهة متقنة من عصر في انحاء العالم الاسلامي الى يومنا هذا ، فقد رأوا أن التجويد (من اشرف العلوم لتعلقه بكلام الله تعالى) (٧) وان تعلّمه فرض كفاية ،

---

(٤) انظر ما اثير حول الكتاب ومناقشته في « النواسخ في كتاب سيبويه » ، د. حسام سعيد النعيمي ، دار الرسالة ، بغداد ١٩٧٧م ، ص ١٥٥ ـ ١٦١ .

وانظر ايضا : « سيبويه امام النحاة » ـ علي النجدي ناصف ـ لجنة البيان العربي ، القاهرة ١٩٥٣م ، ص ١٣٠ وما بعدها .

(٥) كتاب سيبويه ، نسخة مصورة عن طبعة بولاق ١٣١٧ هـ ، ٤٠٤/٢٠٠ وما بعدها .

(٦) انظر : « انباه الرواة للقفطي » ، ط دار الكتب المصرية ١٩٥٢م ج ٢ ، ص ٣٥١ .

(٧) قواعد التلاوة وعلم التجويد ـ فرج توفيق الوليد ، دار الرسالة . بيروت ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤ م ، ص ١٦ .

والعمل به فرض عين على كل مسلم ومسلمة ممن يقرأ القرآن (٨) ، وكان أول من أفرد تأليفا في التجويد على ما ذكره ابن الجزري (٩) ابو مزاحم موسى ابن عبيدالله الخاقاني (ت ٣٢٥ هـ) الذي نظم قصيدة رائية من واحد وخمسين بيتا من البحر الطويل (١٠) ، اكثر من نصفها مقدمة وخاتمة ووصايا ، وفيها ابيات قليلة تحدثت في شيء من القواعد الصوتية ، ويبدو أنه نظمها لتشرح ، وهذا ما وقع إذ شرحها ابو عمرو الداني (ت ٤٤٤ هـ) الذي ألف كتابا في التجويد غير شرح هذه القصيدة هو التحديد في الاتقان والتجويد ، ومازال الكتابان مخطوطين . وكتاب التجويد واحد من (ثلاثة كتب تتنافس على أن تكون أول كتاب ألف بعد القصيدة الخاقانية وهي :

١- كتاب التنبيه على اللحن الجلي واللحن الخفي لابي الحسن علي بن جعفر ابن محمد السعيدي الرازي المتوفى في حدود سنة ٤١٠ هـ .

٢- كتاب الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة لابي محمد مكي بن أبي طالب القيسي المتوفى سنة ٤٣٧ هـ .

٣- كتاب التحديد في الاتقان والتجويد لابي عمرو عثمان بن سعيد الداني المتوفى سنة ٤٤٤ هـ (١١) .

وقد طبع من هذه الثلاثة ، كتاب الرعاية بتحقيق د . احمد حسن فرحات . اما الآخران فما زالا مخطوطين (١٢) .

---

(٨) م. ن ، ص ١٠ .

(٩) غاية النهاية في طبقات القراء ، لابن الجزري ـ نشره برجستراسير ، ط ٢ بيروت ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، ج٢ ، ص ٣٢١ .

(١٠) نشرها غانم قدوري حمد في مجلة كلية الشريعة ببغداد ، العدد ٦ سنة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠ م في بحثه الموسوم (علم التجويد نشأته ومعالمه الاولى) .

(١١) علم التجويد نشأته ومعالمه الاولى ، غانم قدوري حمد ، مستل من مجلة كلية الشريعة ، العدد ٦ سنة ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠ م ، ص ٣٦ .

(١٢) انظر النسخ واماكن وجودها في : م. ن ، ص ٣٧ و ص ٤٢ .

وهكذا نجد الكلام على اصوات العربية مبثوثا في المعجمات ، وكتب النحو واللغة والتصريف ، والقراءات والتجويد . وفي العصر الحديث تناول الصوت العربي بالدرس كثير من الكتاب من العرب وغيرهم ، منهم د . علي عبد الواحد وافي في كتابه « علم اللغة » ، ود . ابراهيم أنيس في (الاصوات اللغوية) ، ود . عبدالرحمن أيوب في « اصوات اللغة » ، ود . محمود السعران في « علم اللغة » ، ود . تمام حسان في « مناهج البحث في اللغة » ، ود . كمال بشر في « علم اللغة العام – الاصوات – » ، ود . احمد مختار عمر في «دراسة الصوت اللغوى » ، ود . عبد الصبور شاهين في « القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث » ، وفي « المنهج الصوتي للبنية العربية » ، ود . محمود فهمي حجازي في « علم اللغة العربية » ، ود . رمضان عبدالتواب في « التطور اللغوى » ، ود . احمد علم الدين الجندي في « اللهجات العربية » ، وغيرهم ، ومن غير العرب ماكتبه شادة في « علم الأصوات عند سيبويه وعندنا » ، وبراجستراسير في « التطور النحوي للغة العربية » ، وهنرى فليش في « العربية الفصحى » ، وفي « التفكير الصوتي عند العرب » ، وجان كانتينو في « دروس في علم اصوات العربية » :

النظام الصوتي وتطوره :

وسواء بدأت هذه الاصوات عن طريق الالهام أو التواضع والاصطلاح أو محاكاة الاصوات الطبيعية أو غير ذلك (١٤) . فالذي لاشك فيه انها بدأت بالفاظ قليلة محدودة بالقدر الذي يحتاج اليه الانسان في حياته (ثم احتيج فيما

---

(١٣) الخصائص – لابن جني ، تحقيق محمد علي النجار ، ط دار الكتب المصرية ١٣٧١هـ – ١٩٥٢ م ، حـ ١ ، ص ٣٣ .

(١٤) انظر علم اللغة ، د. علي عبدالواحد وافي ، ط ٧ سنة ١٩٧٢ ، ص ٩٦ وما بعدها ودلالة الالفاظ ، د. ابراهيم أنيس ، ط ٢ سنة ١٩٦٣ م ، ص ٢٠ وما بعدها .

بعد الى الزيادة عليه لحضور الداعي اليه فزيد فيها شيئا فشيئا) (١٥) .

ولا شك في أن الاصوات التي عبر بها الانسان عما استجد في حياته قد تألفت تأليفا يميزها عن التأليف الاول ولولا ذلك لالتبست المعاني وتعذر التفريق بينها وفقدت اللغة قيمتها في التعبير عن الاشياء بشكل ميسّر وكانت الاشارة الحسية الى الشيء اسهل في بيان المراد به من الاشارة الصوتية .

وهكذا ولدت الالفاظ الجديدة للتعبير عن المعاني الجديدة ، وهكذا تولد ، كذلك لانشك في أن الانسان قد هجر اصواتا كان ألفها للتعبير عن شيء معيّن وذلك بعد أن انقطعت صلته بذلك الشيء ؛ وهذا أمر مشاهد محسوس فكم من الالفاظ لم يعد لها مكان في استعمالنا اليومي لان ما اشارت اليه لم يبق مستعملا عندنا فمن من اهل بغـداد اليوم يجد حاجة الى استخدام (السماية) أو (البادگير) أو (الگارى) أو (الربل) (١٦) وغير ذلك مما كان جاريا على السنة آبائنا وجرى على السنتنا حينا ثم انقطع بانقطاع الحاجة اليه . وهذا الذي وقع في لهجاتنا وقع في الفصيح أيضا على مر الايام ومن اوائل ماحدث من ذلك ماجاء به الاسلام من الفاظ اصطلاحية تحولت بالالفاظ القديمة عن معانيها وما أماته من الفاظ بامامته ما كانت له ، ومن ذلك مثلا « المرباع » و « الصفايا » و « النشيطة » وهو ما كان يأخذه رئيس القوم في الجاهلية اذا غنموا ، وقد ابطله الاسلام . قال في اللسان (١٧) : « والمرباع

---

(١٥) الخصائص ، حـ ٢ ، ص ٢٨ ، وانظر المزهر للسيوطي تحقيق محمد احمد جاد المولى وصاحبيه ، ط عيسى الحلبي ، حـ ١ ، ص ٥٥ .

(١٦) السماية : طاقة في السقف تجعل للضوء ، البادگير : منفذ هواء في الجدار يرتفع الى السطح ، الگاري : عربة نقل تجرها الخيول على سكة حديد ، الربل : عربة صغيرة يجرها حصانان غالبا او حصان واحد ، تسمى في مصر (الحنطور) .

(١٧) لسان العرب ، لابن منظور طبعة مصورة عن ط بولاق ، حـ ٩ ص ٤٥٧ مادة (ربع) .

ما يأخذه الرئيس وهو ربع الغنيمة ، قال :

لك المرباع منهـا والصفايا وحكمك والنشيطة والفضـول

الصفايا ما يصطفيه الرئيس ، والنشيطة ما أصاب من الغنيمة قبل أن يصير الى مجتمع الحيّ ، والفضول ماعجز أن يقسم ، لقلته وخص به . . ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم لعديّ بن حاتم قبل اسلامه : (انك لتأكل المرباع ، وهو لايحل لك في دينك . . .) (١٨) . وبقيت امثال هذه الالفاظ كلمات معجمية نعود الى المعجمات لنرى معانيها عند عروض النص لنا . ولا ريب في أن الذين لم يكونوا قد دونوا الفاظهم في معجمات قد فقدوا أمثال هذه الالفاظ بفقد مسمياتها ، وهكذا ماتت الفاظ بانعدام الحاجة اليها ، وهكذا تموت ، ذلك أن « النظام الصوتي بعيد كل البعد من أن يكون ثابتا طوال تطور لغة من اللغات » (١٩) ، وتسهم ولادة الالفاظ وعلاقتها ببعضها في النظم واتصال اللغة بغيرها من اللغات في التأثير على بعض الاصوات في الالفاظ وتحويلها الى اصوات أخرى . ألا يرى مثلا أن النون تأتي صافية مظهرة لا يشوبها اخفاء أو ادغام أو قلب (٢٠) في قولهم شنب وأشنب . فاذا قالوا : فعلاء ، قلبوا النون ميما ، وقالوا : شماء في نطق شناء ، وان القبائل العربية

---

(١٨) الحديث في مسند الامام احمد بلفظ (الست من الركوسية وانت تأكل مرباع قومك ؟ قلت : بلى قال : فان هذا لا يحل لك في دينك) ٤/٢٥٧ ، وفي ص ٣٧٨ : « فانه لا يحل في دينك المرباع » ، وفي ص ٣٧٩ «أو لست تأخذ المرباع ؟ قلت بلى ، قال ذاك لا يحل لك في دينك » .

(١٩) اللغة تأليف ج فندريس ، تعريب عبدالحميد الدواخلي ومحمد القصاص ، ط لجنة البيان العربي ، ١٩٥٠ م ، ص ٦٤ .

(٢٠) انظر أحكام النون الساكنة والتنوين في النشر في القراءات العشر ، لابن الجزري تصحيح علي محمد الضباع ـ دار الفكر ٢/٢٢ ـ ٢٧ .

القريبة من سواحل الخليج شاع فيها من الاصوات ما أطلق عليه علماء العربية الحروف غير المستحسنة ، كما ان ذلك ظاهر في لهجاتنا العامية في البلاد العربية حيث تأثرت اللهجات بما جاورها أو خالطها من لغات غير عربية .

واللغة العربية الفصيحة ليست نسيج وحدها بين لغات البشر ؛ بل هي واحدة من هذه اللغات كان يجرى عليها من القوانين اللغوية ما يجرى على أية لغة أخرى ، فيؤدى الى انتقالها وتطورها وتغيرها ، ولا يبعد أن يكون ما اشار اليه غير واحد من المحدثين (٢١) من أصالة لغة عربية قديمة وفرعية غيرها مما أطلق عليه (اللغات السامية) حقيقة تاريخية ، فقد « تطورت لغات الجزيرة العربية ، وتحولت لهجاتها الكلامية الى لغات كتابية ، استقلت كل منها باسم خاص ، كالبابلية والآشورية والمعينية ، والكنعانية ، والارامية ، وأصبحت لكل منها مميزات خاصة في قواعد أصواتها ونحوها وصرفها ، في اطار اللغة المستقلة ، كما شاركت في قواعد عامة أخرى تتفق فيها مع اخواتها في اطار الاسرة اللغوية المعروفة التي تنتمي اليها ، وهي اسرة لغات الجزيرة العربية (٢٢) . يقوّي هذا أن موجات الناطقين بتلك اللغات خرجت على الرأي الراجح من « جزيرة العرب » في ازمنة متباعدة (٢٣) . فكل لغة منها يمكن أن تمثل التطور

---

(٢١) انظر مثلا تاريخ الجنس العربي ، محمد عزة دروزة ، ط بيروت ١٩٦٤ م ١٦/١ ـ ١٧ ، ومن تراثنا اللغوي القديم ـ طه باقر ، ط المجمع العلمي العراقي ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠م ، ص ١٧ وما بعدها .

(٢٢) العربية اصل والعبرية فرع ، د. باكيزة رفيق حلمي ، فرزة من المجلد السادس والعشرين من مجلة المجمع العلمي العراقي ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م ، ص ١٨٤ .

(٢٣) انظر تاريخ اللغات السامية ، تأليف ولفنسون ، ط دار القلم ، بيروت ١٩٨٠ ، ص ٥ ، ودراسات في فقه اللغة ، د. صبحي الصالح ، ط ٣ ، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨ ص ٤٩ وما بعدها ، وتاريخ الجنس العربي ، ص ١٧ ، ومن تراثنا اللغوي ، ص ١٧ .

التاريخي لبعض لهجات العربية القديمة ، واستمرار البحث في هذا المجال كفيل بأن يقول الكلمة الاخيرة فيه .

ترى أيمكن أن يتوقف تطور الاصوات في لغة من اللغات ؟

ان الاجابة السريعة عن هذا السؤال ستكون ولاشك بالنفي ، لان اللغة التي تتوقف عن التطور الصوتي لابد أن تكون قد فارقت الحياة ، كما هو الحال في اللغة الاكدية ، أو الاوغاريتية ، فتطور الاصـــوات اللغوية تحكمه عوامل عدة (٢٤) ترتبط ارتباطا وثيقا بحياة الانسان والحضارة الانسانية . فالاختلاف الخلقي في اعضاء النطق بين الاجيال المتباعدة ، وأخطاء السمع ، وتعامل الاصوات في الالفاظ المستحدثة بالاشتقاق ، أو فيما تجاور من الالفاظ نتيجة التأليف ، واختلاف العوامل النفسية والبيئية ، كل ذلك يؤثر بفاعلية ذاتية في اصوات اللغة من غير أن يكون أهل تلك اللغة قاصدين تغيير أصواتها .

ولكن كمـــا أن القواعد لاتكاد تخلو من استثناء ، فاننا ينبغي أن ننتبه الى الواقع التاريخي الذي احاط بالعربية الفصيحة ، فجعلها كشجرة عظيمة تضرب بجذورها في اعماق الارض ، وتنمو اغصانها وتمتد في كل اتجاه ، وهي ثابتة في موضعها لاتبرحه ، لست أريد هنا أن أخرج العربية من دائرة الخضوع لعوامل التحول الصوتي ، فنظرة سريعة الى ماآل اليه الكثير من أصواتها في لهجات الناس اليوم يفصح عن ذلك الخضوع بما لايترك متسعا لدعوى أو حجاج ، ولكنني أسعى لثبيت حقيقة تاريخية ، ومستقبلية في الوقت نفسه ، وان ذكرها ونبّه عليها غير واحد ممن تقدمني في هذا (٢٥) .

---

(٢٤) انظر علم اللغة ، علي عبدالواحد وافي ، ص ٢٨٩ .

(٢٥) انظر مثلا تاريخ الادب العربي ـ العصر الاسلامي : د. شوقي ضيف ، ط٢ ص ٣٢ ، والتطور اللغوي : د. رمضان عبدالتواب ، ط ١ المدني ١٩٨١ م ص ٧ ، ونظرية النحو القرآني ، د. احمد مكي الانصاري ، ط ١ ، ١٤٠٥هـ /١٩٨٤م ، ص ٢٤ ـ ٢٥ .

لقد قدر لهذه اللغة أن تكون لغة آخر كتاب سماوي يخاطب اهل الارض فتناول علماء العربية لغة العرب بشيء كثير من الحيطة والتثبت ، لصلتها بالقرآن (٢٦) ، وكأن هذه اللغة دين ينبغي أن يعرفوا من أين يأخذونه ، فلقد كان المسموع عن العرب هو الاساس الاول الذي اعتمدوه في جمع اللغة وتدوينها ، فليتحرَّ آخذ اللغة وغيرها من العلوم اهل الامانة والثقة والعدالة . . . » (٢٧) واستطاعوا بتثبتهم هذا وتحرّيهم الدقة والامانة أن يدونوا لغة العرب كما هي الى حد كبير . لقد اتجه العلماء الى دراسة العربية ، وتدوينها ، وحفظ قواعدها ، كي تصان لغة القرآن من اللحن والخطأ والزلل الذي قد يفضي الى اختلاف المعنى . وقد نزل القرآن الكريم باللغة التي كان القرشيون يألفونها في أعلى السنتهم فصاحة وبيانا ، وقد قرأ رجل بين يدي عمر ، رضي الله عنه : (عتى حين) (٢٨) وهي لهجة هذيل في (حتى) ، فسأله : من أقرأك هذا ؟ قال : ابن مسعود . فبعث اليه برسالة جاء فيها : « ان الله عز وجل أنزل هذا القرآن ، فجعله عربيا ، فأنزله بلغة قريش ، فأقرئ الناس بلغة قريش ، ولا تقرئهم بلغة هذيل ، والسلام » (٢٩) .

لقد تحولت العربية من لغة جنس بعينه الى لغة عقيدة تضم كل الاجناس ،

(٢٦) انظر القرآن واللهجات العربية : د. حسام سعيد النعيمي ، مقال في كتاب رحلة في الفكر والتراث ، ط جامعة بغداد ١٩٨٠م ، ص ٢٣٧ ، ٢٣٩ .

(٢٧) الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ـ احمد بن فارس ، تحقيق : مصطفى الشويمي ، ط ١. بدران ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٤م ، ص ٦٣ .

(٢٨) قوله تعالى : (حتى حين) ورد في ست آيات على ما احصاه في المعجم المفهرس : الآية ٣٥ من سورة يوسف ، الآيتان ٢٥ ، ٥٤ من سورة المؤمنون ، الآيتان ١٧٤ ، ١٧٨ من سورة الصافات ، الآية ٤٣ من سورة الذاريات ، وانظر المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم ، وضعه : محمد فؤاد عبدالباقي ، ط الشعب سنة ١٣٧٨هـ مادة (حين) ، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ .

(٢٩) المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات ـ لابن جني ، تحقيق علي النجدي ناصف وصاحبه ، ط القاهرة ١٣٨٦ هـ ، ١/٣٤٣ ، وانظر اعجاز القرآن ـ للرافعي ط ٩ سنة ١٣٩٣هـ ، ص ٣٨ ، ٦٢ ، والعصر الاسلامي د. شوقي ضيف ، ص ٣١ .

فعكف على دراستها والعناية بها علماء المسلمين من غير العرب ومن العرب ، فوصفوها ، واستنبطوا من خلال الدراسة الوصفية قواعدها التركيبية والصرفية والصوتية منذ تنزّل القرآن ، وقبيل ذلك وبعده الى حدود سنة خمسين ومئة للهجرة ، وبينوا أن الذي يريد ان يتكلم العربية ، فهذه أصواتها ، وهذا نظمها وتأليفها .

وهكذا وصل الينا وصف دقيق لاصوات العربية في « العين » و « الكتاب » وهما من اوائل ماوصل الينا في هذا الباب ان لم نقل أول ماوصل الينا فيه . وبهذا سلكت العربية في تطورها سبيلين :

الاولى : على السن الناس في بيوتها وأسواقها ومتاجرها ، وهي الطريق التي كانت ستسلكها مثل اية لغة في العالم ، لو لم تتحول الى لغة عقيدة ، فتطورت اصواتها التطور الطبيعي ، وتداخلت مع غيرها من اصوات اللغات المختلطة بها ، وابتعدت تدريجيا عن اللغة العربية يوم درسها العلماء واستنبطوا قواعدها .

الثانية : ماكان على السن الادباء والشعراء والعلماء حيث تطورت في إطار ثبات اصولها ، فصار العربي وغير العربي يتعلمها ويجتهد في أن يطوع لسانه للنطق الصحيح المتفق مع ما استنبطه العلماء من اصواتها ، وهي اللغة التي حفظت لنا علوم اربعة عشر قرنا وآدابها ، ومشاعر ارباب الاقلام فيها وأكارهم ، وهي اللغة التي نتحدث بها اليوم في الفصيح ونكتب .

ابعاد المشكل الصوتي المعاصر :

ترى هل سلمت اصوات اللغة الادبية من تأثيرات تلك التي سلكت السبيل الاولى ، وخضعت لعوامل التطور الطبيعي ؟

ان الاجابة عن هذا السؤال تدعونا لحصر الموضوع في ثلاثة أبعاد : البعد العلمي أو الدراسي ، والبعد الواقعي ، والبعد المستقبلي . وسنقف بحثنا

هذا على البعد العلمي . اما البعد الواقعي والمستقبلي فلهما حديث آخر لارتباطهما باللهجات المحلية ، نرجو أن نعرض له مفصلا في دراسة خاصة .

البعد العلمي (الدراسي) :

درس علماء العربية اصواتها ونقلوا لنا وصفها ، وأول ما وصل الينا من ذلك كما تقدم ماجاء في مقدمة « كتاب العين » للخليل ، على خلاف في نسبته كاملا ، وما جاء في كتاب سيبويه ، وبقي هذا الوصف لمخارج الحروف وصفاتها وتعاملها ينتقل في كتب العربية الى أيامنا هذه . ولما بدأت الدراسات الصوتية الحديثة تفيد من الاجهزة وصور الاشعة في تحديد المخارج وبيان الصفات ، رأينا اختلافا ظاهرا في عدد من الحروف بين ماقاله علماء العربية ، وما وصل اليه المحدثون . الا ان هذا الخلاف لايتناول حقيقة الاصوات المختلف فيها ، وان حمله بعضهم على ذلك كما سيأتي ، وانما يتناول الكلام على تعيين مخرج الحرف أو صفته ، فحقيقة الالف مثلا واحدة عند الفريقين ، وهي هذا الصوت الواقع بين القاف واللام في « قال » مثلا ، الا ان سيبويه جعل مخرجه من الحلق ، وقالت الدراسة الحديثة غير ذلك كما سيأتي تفصيلا ، فصوت الالف اليوم هو صوته حين وصفه علماء العربية الا ان الكلام على مخرجه هو الذي تغير ، ولذا جعلنا ذلك في باب البعد العلمي أو الدراسي ، وما قيل عن الالف ، يقال كما ارى عن موقع القاف من الخاء والغين ، ومخرج الواو .

وفي الصفات جعل علماء العربية القاف والطاء في الاصوات المجهورة ، وهما في المهموسة عند المحدثين ، ولاشك في أن الصوت الذي ينتقل مخرجه أو يتغير من المجهور الى المهموس ، يكون قد تحول عن صورته الاولى التي كان عليها الى صورة جديدة ، فلايمكن أن يقال ان الصوت بقي هو هو ، فما معنى جعلنا ذلك من باب الاختلاف العلمي ؟ انني آمل أن تكون الاسطر

التالية موفية في الاجابة عن هذا السؤال .

الالف :

حينما تكلم سيبويه على مخارج الحروف (٣٠) ، لم يبين المراد بالمخرج ، وكأنّه اكتفى بما توحيه اللفظة في معناها اللغوي اذا اضيفت الى الحرف . وقد ذكر ابن جني ، وهو يقرب للقارئ المراد بمخارج الحروف وكيف تختلف أصواتهـــا ، ان بعضهم شبه الحلق والفم بالنّاي (٣١) ، ولم يذكر لنا من هذا الذي شبّه جهاز النطق الانساني بالناي ، وليته فعل ، وقد شبّهه ابن جني بالعود في الموضع نفسه حيث قال : (ونظير ذلك وتر العود ، فان الضارب اذا ضربه ، وهو مرسل سمعت له صوتا ، فان حصر آخر الوتر ببعض اصابع يسراه ، أدى صوتا آخر ، فان ادناها قليلا ، سمعت غير الاثنين . ثم كذلك كلما أدنى اصبعه من اول الوتر تشكلت لك اصداء مختلفة ، الا ان الصوت الذي يؤديه الوتر غفلا غير محصور ، تجده بالاضافة الى ماأداه وهو مضغوط محصور أماس مهتزا ، ويختلف ذلك بقدر قوة الوتر وصلابته ، وضعفه ورخاوته ، فالوتر في هذا التمثيل كالحاق والخفقة بالمضراب عليه كاول الصوت من أقصى الحاق . وجريان الصوت فيه غفلا غير محصور كجريان الصوت في الالف الساكنة ، وما يعترضه من الضغط والحصر بالاصابع كالذي يعرض للصوت في مخارج الحروف من المقاطع ، واختلاف الاصوات هناك كاختلافها هنا » (٣٢) .

فمخرج الحرف على هذا حيث يتم حصر الصوت أو ضغطه . وكان قد بين في موضع سابق ان الصوت عرض ، يصحب النفَس ويجرى معه . فاذا

---

(٣٠) الكتاب ٤٠٥/٢ .

(٣١) سر صناعة الاعراب ــ لابن جني ، تحقيق مصطفى الســقا وآخرين ، ط مصطفى الحلبي ، ١٣٧٤هـ/١٩٥٤م ، ٩/١ .

(٣٢) م. ن ١ : ٩ ــ ١٠ .

وجد في طريقه عقبة تعوق استمراره كان موضع تلك العقبة مولد الحرف ، قال : « اعلم أن الصوت عرض يخرج مع النَّفَس مستطيلا متصلا ، حتى يعرض له في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده باستطالته ، فيسمى المقطع اينما عرض له حرفا » (٣٣) .

ويفهم من هذين النصين أن الصوت عنده موجود قبل أن يصل الهواء الى موضع الضغط أو الحصر ، بل انه نص على أن اول الصوت من اقصى الحلق ؛ وفي هذا اشارة واضحة الى احساسه بأثر الوترين الصوتيين ، فالصوت الذي يحس أثره في الوترين الصوتيين وليس له في جهاز النطق مقطع ، هو الالف . وقد اتفق المحدثون على ان اهتزاز الوترين الصوتيين يؤثر في صفة الحرف لافي مخرجه .

وان الالف صائت مجهور يحدث نتيجة اندفاع الهواء في مجراه المستمر خلال الحلق والفم من غير أن يعترضه مقطع يثنيه أو يضيق مجراه » (٣٤) ، وأنه حيث يكون ضيق في مجرى النفس أو انطباق يكون مخرج الحرف (٣٥).

وعلى هذا يمكن أن نقول ان الالف بناء على الدرس الصوتي الحديث هواء مجهور أو نفس مجهور ، ذلك اننا لانستطيع أن نقول : في هذه النقطة من جهاز الصوت يضيق مجرى النفس محدثا صوت الالف ، كما يمكن أن نقول ذلك عن أى حرف آخر من حروف العربية . ومنها الياء والواو اختا الالف في الامتداد واللين . وقد تنبه لهذا الاختلاف علماء العربية ، ومنهم ابن جني حيث قال : « الا ان الصوت الذي يجرى في الالف مخالف للصوت الذي يجرى في الياء والواو . . . أما الالف ، فتجد الحلق والفم معها منفتحين

---

(٣٣) سر صناعة الاعراب ــ لابن جني ١ : ٦ .

(٣٤) انظر علم اللغة ، مقدمة للقارئ العربي ، د . محمود السعران ١٩٦٢ م ، ص ٢٦ .

(٣٥) انظر الاصوات اللغوية ــ د. ابراهيم انيس ، ط ٥ ، ١٩٧٩ م ، ص ٢٣ .

غير معترضين على الصوت بضغط أو حصر . وأما الياء فتجد معها الاضراس سفلا وعلوا قد اكتنفت جنبتي اللسان وضغطته ، وتفاجّ الحنك عن ظهر اللسان فجرى الصوت متصعدا هناك . . وأما الواو ، فتضم لها معظم شفتيك ، وتدع بينهما بعض الانفراج ، ليخرج فيه النفس ، ويتصل . فلمّا اختلفت اشكال الحلق والفم والشفتين مع هذه الاحرف الثلاثة ، اختلف الصدى المنبعث من الصدر ، وذلك قولك في الالف اٰ ا : وفي الياء اى ، وفي الواو اٰو (٣٦) .

فالالف لولا مايصحبها من اهتزاز الوترين الصوتيين تكون هواء لاصوتا ، وموضع هذا الاهتزاز هو الذي جعله ابن جني مخرجا للالف ، لان الصوت الخارج من أقصى الحلق (الوترين) لم يجد له مقطعا في الحلق أو الفم أو الشفتين ، فرجع الى مخرج الهمزة لينقطع هناك « . . . استمر الصوت ممتدا حتى ينفد فيفضي حسيرا الى مخرج الهمزة فينقطع بالضرورة عندها اذ لم يجد منقطعا فيما فوقها » (٣٧) .

وهكذا نجد تقاربا كبيرا في ادراك حقيقة الالف بين القدامى والمحدثين ، على مابينهم من اختلاف في المصطلح . وحينما نسعى لتقريب الامر نقول : ان الالف عند المحدثين نفس مجهور ، أو هواء مجهور ، وموضع الجهر هو الوتران الصوتيان ، فالالف تولد بالصفة على هذا لا بالمخرج ، لان الهواء المجهور بعد تجاوزه الوترين اللذين أوجدا فيه صفة الجهر باهتزازهما حين يعوقه طرف اللسان ، وقد اتصل باصول الثنايا ، ثم ينفصل عن ذلك الموضع فجأة يسمعنا صوت الدال ، فها هنا اذن مخرج الدال ، وحين يقترب طرف اللسان من أطراف الثنايا العليا بحيث يسمح للهواء المجهور بالمرور من بينهما محدثا احتكاكا مسموعا يكون صوت الذال ، فاذا انطلق الهواء المجهور من

---

(٣٦) سر الصناعة ١/٨ ـ ٩ .

(٣٧) م. ن ١/٨ .

غير انطباق في جهاز الصوت أو اقتراب كان صوت الالف .

والقول بولادة الالف بالصفة لا بالمخرج يفسر ماقاله علماء العربية من أن مخرج الالف من اقصى الحلق – حيث الوتران الصوتيان – ذلك أنهم أحسّوا ولادتها في هذا الموضع ، ولم يكونوا على علم بالوترين وأثرهما في صفة الصوت فحسبوه أثرا في المخرج . واذا مضينا أبعد من ذلك ، وقلنا ان مخرج الحرف انما هـو حيث يولد ، كان كلامهم في غاية الدقة ، لان ولادة الالف انما تكون في الوترين باهتزازهما .

الالف والفتحـة :

يندرج تحت مبحث الالف ايضا الحديث عن كون الالف فتحة مشبعة أو كون الفتحة ألفا مختلسة . قال سيبويه : « وانما الحركات من الالف والياء والواو » (٣٨) ، وقال ابن جني : « ان الالف فتحة مشبعة ، والياء كسرة مشبعة ، والواو ضمّة مشبعة . يؤكد ذلك عندك ايضا أن العرب ربما احتاجت في اقامة الوزن الى حرف مجتلب ليس من لفظ البيت ، فتشبع الفتحة ، فيتولد من بعدها الالف » (٣٩) .

وقال في موضع آخر : « وأنشدنا ابو علي لابن هرمة يرثي ابنه :

وأنت من الغوائل حيـــن ترمى
ومـــن ذمّ الرجال بمنتزاح

فأشبع فتحة الزاي » (٤٠) .

وهذا الذي أوردناه عن سيبويه وابن جني ، وجرى عليه جمهور الدارسين للاصوات قديما وحديثا ، به حاجة الى وقفة قصيرة ، لبيان العلاقة بين الالف

---

(٣٨) الكتاب ٢/٢٥٢ .
(٣٩) سر الصناعة ١/٢٧ .
(٤٠) م. ن ١/٢٩ .

والفتحة في نطق العرب اليوم ، ونسارع الى القول اننا لاننكر كون الالف فتحة مشبعة ، او كون الفتحة ألفا مختلسة ، ولكن الذي ننكره أن تكون الالف في (كاتب) مثلا هي من اشباع الفتحة في (كتب) كما ننطقها اليوم . وهذا بيان ما أوجزناه :

نلفظ كلمة (قُلْ) مثلا ، وهي مكونة من ق + ـُ + ل ، ثم نشبع الضمة التي بين القاف واللام ، أو قل : نمد الصوت بها فينشأ منها صوت الواو المدّية ، ق ـ و ـ ل ، كما نسمع ذلك في لفظ (نقول) ، أو لفظ (قولا) مثلا ، ومثل ذلك القول في الياء التي تنشأ من اشباع الكسرة ، كقولنا : (سر) ، وهو يكون من س + ـِ + ر . فاذا أشبعنا الكسرة ، أو مددنا الصوت بالكسرة فسوف نسمع صوت س + ى + ر ، في نحو : (نسير) أو (سيرا) مثلا . ولو تأملنا العلاقة بين الكسرة والياء المدية ، أو بين الضمّة والواو المدية ، فسوف نجد بوضوح أن الثانية ناشئة من اطالة الصوت بالاولى . هكذا ننطق هذه الاصوات اليوم .

ومعنى ذلك ان كلام علمائنا على انشاء الياء المدية من الكسرة ، والواو المدية من الضمة مازال قائما في نطقنا اليوم ، مع ملاحظة واحدة ، لاأشك في أن القارئ قد تنبه اليها ، هي اننا لانزعم وجود حركة قبل حرف المدّ من جنسه ، آخذين بما عليه الدراسة الصوتية الحديثة في ذلك (٤١) . اما علماؤنا ، فانهم اذا تحدثوا عن الصوت البسيط ، قالوا : ان الالف فتحة مشبعة ، والياء كسرة مشبعة ، والواو ضمة مشبعة .

فاذا جاؤوا الى الصوت في التركيب ، قالوا : فتشبع الفتحة فيتولد (من بعدها) الالف ، كما أوردنا عن ابن جني في النص الذي نقلناه آنفا . وليس هذا موضع مناقشة هذا الامر .

---

(٤١) انظر مثلا الاصوات اللغوية ، ص ٣٩ ، والمنهج الصوتي للبنية العربية ، د. عبدالصبور شاهين ، ط بيروت ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، ص ١٨ .

قلنا ان كلام علمائنا على انشاء الياء المدّية من الكسرة ، والواو المدية من الضمة ، مازال قائما في نطقنا اليوم ، بيد أننا لو جرّبنا مدّ الفتحة التي بين الكاف والتاء التي في (كتب) لحصلنا على ألف ، هي على وجه اليقين غير الالف التي نلفظها بين الكاف والتاء في (كاتب) . ويمكن أن يلمس ذلك بوضوح عند نطق صوت ك + ـُـ ، وصوت ك + ـِـ ، وصوت ك + ـَـ ، باختلاس ثم باشباع كُ، كو، كِ ، كي ، كَ، كا. وهذا يعني احدامرين:

الاول : أن تكون الفتحة التي نلفظها اليوم قد تقدمت قليلا الى الامام ، وبقيت الالف اشباعا لفتحة متأخرة .

الثاني : أن تكون الالف قد رجعت الى الوراء ، فصارت اشباعا لفتحة متأخرة لم تكن شائعة يوم وصفت أصوات العربية ، وان الفتحة التي نلفظها اليوم هي الفتحة القديمة ، أى ان موقع الفتحة الحالية هو موقعها القديم .

والذي ترجح عندنا الاحتمال الثاني أى أن صوت الالف قد تغير عمّا كان عليها في لسان جمهور العرب قديما ، الا الحجازيين ، وذلك بان دخله في نطقنا اليوم بعض التفخيم الذي كانت عليه لهجة اهل الحجاز كما سيأتي . وهذه مصورة موقع الفتحة والالف على مدرج أصوات اللين :

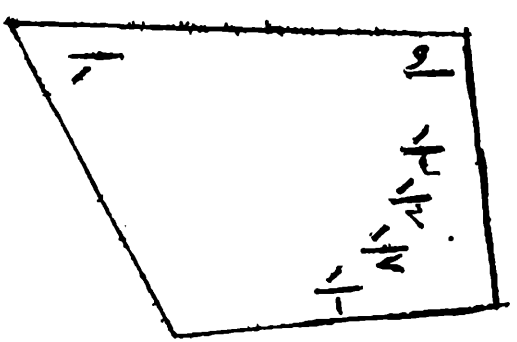

فالحركة الامامية الضيقة هي الكسرة . فاذا مدّ الصوت بها صارت ياء مدّية والحركة الخلفية الضيقة هي الضمة . واذا مدّ الصوت بها صارت واوا مدّية ، والحركة الوسطية المفتوحة هي الفتحة كما نلفظها بعد الكاف والتاء والباء في (كتب) وكلمة وسطية فيها تسامح ، والآ فهي أقرب الى الخلف اى الى جهة الضمة (٤٢) ، وهي التي وضعنا تحتها للتمييز رقم (١) . اما التي وضعنا تحتها رقم (٢) فهي الفتحة المفخمة قليلا والتي ينشأ من مد الصوت بها الالف التي تجرى على السنتنا اليوم ، والتي جعلنا تحتها رقم (٣) هي الفتحة التي تنشأ عنها الالف المفخمة كثيرا وهي الالف التي نسمعها من كثير من العانيين في العراق ، في نحو قولهم : (گـَاُل ، وعـَاُنه) ، والتي جعلنا تحتها رقم (٤) هي التي تنشأ عنها الالف المبالغ في تفخيمها وذلك مانسمعه من بعض الاعاجم في قولهم : « السلام عليكم » و « عليه السلام » .

والذي جعلنا نميل الى القول برجوع الالف ، كلام علمائنا على وصف وضع جهاز النطق عند أصدار الالف من القدامى والمحدثين ، قال ابن جني : « نجد الحلق والفم معها منفتحين غير معترضين على الصوت بضغط أو حصر » ويقول بعض المحدثين :

« الالف ليس لها في الحقيقة نقطة انتاج معينة على طول مجرى الهواء ، لان اللسان يكون معها في واقع الامر في وضع اراحة ، أى ممتدا في قاع الفم (٤٤) واللسان عندما يكون في هذا الوضع تنتج الفتحة التي نسمعها في مثل

---

(٤٢) انظر التصريف العربي من خلال علم الاصوات الحديث ـ الطيب البكوش ، ط تونس ١٩٧٣م ، ص ٤٨ .

(٤٤) دراسة الصوت اللغوي ـ د. احمد مختار عمر ، ط الكويت ، ١٣٩٦ هـ ـ ١٩٧٦م ، ص ٢٩٧ .

« كتب » ، فاذا ارتفع اقصى اللسان قليلا عند النطق بالفتحة دخلها من التفخيم أو من صوت الواو بمقدار ذلك الارتفاع ، والالف التي في مثل « كاتب » يرتفع معها أقصى اللسان بدرجة قليلة جدا ، ولذا كانت أفخم في السمع من الالف التي تنشأ من اشباع الصوت بفتحة الكاف في « كتب » . وقد ذكر سيبويه ألفا مفخمة نسبها الى اهل الحجاز ، قال : « وتكون خمسة وثلاثين حرفا بحروف هن فروع . . . يؤخذ بها وتستحسن في قراءة القرآن والاشعار وهي . . وألف التفخيم يعني بلغة اهل الحجاز في قولهم : الصلاة والزكاة والحياة . . » (٤٥) .

وتفخيم الالف عند الحجازيين يعني دخول صوت الواو او الضمة الخلفية في الالف أو الفتحة وقد كان ذلك سببا كما يرى بعض العلماء في كتابة هذه الكلمات بالواو في « المصحف » . قال مكي بن أبي طالب : « الالف المفخمة وهي الف يخالط لفظها تفخيم يقربها من لفظ الواو . . وذلك فاش في لغة أهل الحجاز . . وقال بعض النحويين : ولذلك كتبت الصلوة بالواو على لغة الذين فخموا الالف » (٤٦) ولا نملك دليلا يقطع بان ألفنا اليوم هي الالف الحجازية ذلك أن الانسان يمكن ان ينطق من أصوات اللين مايجاور الخمسين (٤٧) ولكنه الظن الذي يرجحه ما قدمناه .

الواو :

الواو كما ذكر الدكتور السعران حرف شفوي – حنكي قصي (٤٨) ،

---

(٤٥) الكتاب ٤٠٤/٢ .

(٤٦) الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة – مكي بن ابي طالب – تحقيق د. احمد حسن فرحات ، ط دمشق ، ١٩٧٣م ، ص ٨٦ ، وانظر تعليلات رسم الالف واواً في «رسم المصحف» – غانم قدوري حمد – بغداد ١٤٠٢ هـ – ١٩٨٢م ص ٣٣٠ – ٣٣٧ .

(٤٧) الاصوات اللغوية ، ص ٣٦ .

(٤٨) علم اللغة ، ص ١٩٨ .

ذلك ان اخراجها يتم بارتفاع أقصى اللسان نحو الحنك الاعلى ، وتسهم الشفتان باستدارتهما في اخراجهما اما القدامى فهي عندهم كما ذكر سيبويه وتابعه علماء العربية من الحروف الشفوية « ومما بين الشفتين مخرج الباء ، والميم والواو » (٤٩) ويبدو ان علماء العربية قد شغلهم وضع الشفتين في النطق بالواو عن تحسس موضع اللسان من الحنك الاعلى « ولعل وضوح استدارة الشفتين مع الواو ، هو الذي جعل القدماء ينسبون مخرج الواو الى الشفتين » (٥٠) واعانهم على ذلك أن اللسان لايقترب بصورة واضحة من الحنك عند النطق بها ، كوضوح استدارة الشفتين (٥١) زد على ذلك أن علماء العربية ألفوا الاشارة الى موضع واحد عند كلامهم على مخارج الحروف هو الموضع الاظهر . فالطاء مثلا من حروف النطع ، مع ان وسط اللسان عند النطق به يرتفع نحو الفاء ، وهو أمر أحسه العلماء ، ولذا قالوا في الطاء انها مطبقة لارتفاع وسط اللسان نحو طبق الفم عند اخراجها ، الا أنهم مع ذلك لم يقولوا ان مخرجها يكون باتصال أول اللسان بأصول الثنايا مع ارتفاع وسطه نحو الطبق فهي طبقية نطعية بل اكتفوا في حديث المخارج بالاشارة الى انها نطعية ، وذكروا انها مطبقة في الصفات (٥٢) ، فوصف الواو بانها شفوية متفق مع منهجهم العام في الكلام على مخارج الحروف . الا أن الذي نميل اليه في هذا وما أشبهه أن يثبت الوصف كاملا ، مختصرا كما قيل في الواو انها شفوية حنكية قصية ، أو مفصلا كما قيل في وصف الواو ايضا ، انها تنتج عن طريق رفع مؤخر اللسان في اتجاه منطقة الطبق اللين ، ولكن مع ترك فراغ يسمح بمرور الهواء دون احتكاك مسموع يصاحب ذلك استدارة الشفتين

(٤٩) الكتاب ٤٠٥/٢ .
(٥٠) الاصوات اللغوية ، ص ٤٣ .
(٥١) انظر : الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني ص ٣١١ .
(٥٢) انظر الرعاية ص ٩٨ ، ١١٤ ، ١٧٢ .

وامتدادهما للامام . . مع اهتزاز الوترين الصوتيين (٥٣) ، المهم أننا لانكتفي في وصف الواو بالقول انها شفوية او بالقول انها حنكية قصية ، وقد ذكر بعض المحدثين أن وصف الواو بانها شفوية ليس خطأ ، لان الشفتين لهما دخل كبير في نطقهما ، ولكن الوصف الدقيق لها أن يقال : انها من أقصى الحنك لأن اللسان يقترب من هذا الوضع عند نطقه بالواو (٥٤) . ونرى انه بما اقترحه من قصور الوصف على أقصى الحنك يقع فيما وقع فيه علماؤنا من افراد الوصف بعد أن أقر ان الشفتين لهما دخل كبير في اخراجهما ، ثم اغفل ذكرهما ، كما أغفل القدامى ذكر الحنك ، والصواب كما قدمنا الجمع بين الوصفين على ماذهب اليه غير واحد من المحدثين (٥٥) .

الغين والخاء :

جعل بعض المحدثين مخارج الحروف في العربية عشرة ، منها :

« ...٧ – طبقي : وهو مانتج عن اتصال مؤخر اللسان بالطبق ، وهو الجزء الرخو الذي في مؤخرة سقف الفم . .

٨– لهوي : وهو مااتصل فيه مؤخر اللسان باللهاة ، وهي آخر جزء في مؤخر الطبق .

٩– حلقي : ونقصد به المخرج الناتج من تضييق الحلق . . . فهو مابين الحنجرة وبين جذر اللسان .

١٠– حنجري:وهو نتيجة الاقفال أوالتضييق فيالاوتارالصوتية ..(٥٦)

---

(٥٣) انظر : دراسة الصوت اللغوي ، ص ٢٧٢ – ٦٧٤ .
(٥٤) انظر : علم اللغة العام – الاصوات . د. كمال محمد بشر ١٩٧٣م ، ص ٨٩.
(٥٥) انظر مثلا : الاصوات اللغوية ص ٤٣ ، وعلم اللغة للسعران ص ١٩٨ ، مناهج البحث في اللغة – د. تمام حسان ، ط الدار البيضاء ١٤٠٠ – ١٩٨٠م ص ١٣٥ .
(٥٦) مناهج البحث في اللغة ص ١١٠ – ١١١ .

وحين تحدث عن مخرج الغين قال : « وهذا صوت طبقي رخو مجهور . . . » (٥٧) ، اما الخاء فهو النظير المهموس للغين ، أى أنه لايختلف في اخراجه عن الغين ، الا انه لايصحبه اهتزاز الوترين الصوتيين . وحين تحدث عن مخرج القاف قال : « وهذا صوت ، لهوي شديد مهموس . . » (٥٨) ومعنى ذلك ان القاف عنده أقرب الى الحلق من الغين والخاء . ذلك أن اللهوي عنده ، يقع بين الطبقي والحلقي . ولما أراد ان يعتذر لعلماء العربية ، اذ وصفوا الغين والخاء بأنهما حلقيان ، ذكر أنه « اذا كان فهمهم للاصطلاح — يعني اصطلاح الحلق — أوسع من فهمنا له حتى يشمل مابين مؤخر اللسان والطبق فلاداعي للقول بخطئهم » (٥٩) .

وفاته أنه سيشكل عليه حينئذ ان يعلل اخراجهم القاف من حروف الحلق ، وهي بين هذه وتلك ، ذلك انه اذا اتسع المصطلح عندهم للمنطقة الممتدة من الحنجرة الى مؤخر اللسان مع مايليه من سقف الفم ، فلاشك في أن موضع القاف وهو لهوي داخل في ذلك ، ومع هذا لم يقولوا ان القاف حلقي ، ولذا لم يبق الا القول الاول الذي قدمه ، وهو أنه « اذا كان مفهوم هذا الاصطلاح في اذهانهم مطابقا لما نفهمه نحن الان فهم ولا شك مخطئون في القول بأن صوت الغين يخرج من الحلق » (٦٠) .

وذهب آخر من المحدثين الى مثل هذا ايضا (٦١) حيث ذكر ان القاف ادنى الى الحلق من الغين والخاء ، واعتذر لعلماء العربية بأنهم اما ان يكونوا أخطأوا في تعيين موضع القاف ، واما انهم وصفوا صوتا آخر كان شائعا في

---

(٥٧) م. ن ص ١٢٩ .
(٥٨) م. ن ص ١٢٤ .
(٥٩) م. ن ص ١٣٠ .
(٦٠) م. ن ص ١٢٩ — ١٣٠ .
(٦١) علم اللغة العام — الاصوات — ص ١٠٩ — ١١٠ .

زمانهم للقاف غير الذي نستعمله الان ، وقد ناقشنا هذين الاحتمالين في غير هذا الموضع (٦٢) ، وانتهينا الى أن « الغين والخاء يمكن ان ينطقا من اللهاة قريبين من موضع القاف ، وهو ماعليه نطقنا اليوم ، ويكونان بعيدها او قبيلها كلاهما ممكن مما يؤدي الى الاشتباه في تعيين المخرج » (٦٣) وهذا الذي جعل اكثر المحدثين يوافقون القدماء على تحديد مخرج الخاء والغين من الحلق والقاف من اللهاة (٦٤) « ويمكن ان يخلص نطقهما من أدنى الحلق في موضع أعمق من موضع القاف ، وحينئذ لامجال للبس في تعيين الموضع ، ويكونان حينئذ أفخم منهما في نطقنا اليوم ، وهو الصوت الذي أرى ان العرب كانوا عليه حين وصفت الحروف ، يقوى ذلك ماذكروه من ان النون لاتنطق نونا خالصة مظهرة لاتشوبها شائبة الاخفاء او الادغام الا مع حروف الحلق الستة الهمزة ، والهاء ، والحاء ، والعين ، والخاء ، والغين . ولو حاولنا اخفاءها مع الهمزة او الهاء او الحاء او العين لما أمكننا ذلك ، بمعنى انه ليس من الاصوات المألوفة في القراءة اليوم ، فلانقرأ : « من أتى » بالاخفاء مثلا ، كما نخفي في :

« من جاء » و « من كان » ولكننا ألفنا الاخفاء مع الخاء والغين كما نلفظهما اليوم فنقول من غادر ، أو من خالف بالاخفاء فيهما . ولو رددناهما الى أدنى الحلق وراء موضع القاف ، ما وجدنا الاخفاء ، معهما سائغا . ولعل هذا الاختلاف

---

(٦٢) انظر : الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني ص ٣٠٥ ــ ٣٠٧ .

(٦٣) م. ن ص ٣٠٧ .

(٦٤) انظر مثلا التطور النحوي للغة العربية ــ براجستراسير ، نشرة د.رمضان عبدالتواب الرياض ١٤٠٢هـ ــ ١٩٨٢م ص ١١ ، ١٢ . والاصوات اللغوية ص ٨٨ ومحاضرات في اللغة ــ د. عبدالرحمن ايوب ط بغداد ١٩٦٦ م ص ٩٨ ودروس في علم أصوات العربية ــ جان كانتينو ــ تعريب صالح القرمادي ــ تونس ١٩٦٦ ، ص ٣٢ .

في موضع اخراج هذين الحرفين هو الذي جعل بعض القراء يخفي معهما وان كان جمهورهم لايرونها من حروف الاخفاء . » (٦٥) .

وقد أشار سيبويه الى شدة القرب بين الخاء والغين والقاف حين قال وهو يتكلم على الخاء والغين : « وهما من حروف الحلق بمنزلة القاف من حروف الفم ، وقربهما من الفم كقرب القاف من الحلق » (٦٦) .

اما ماقيل من تغير صوت القاف ، وأن علماء العربية وصفوا صوتاآخر فلا أرى ابلغ في نقضه من قول سيبويه : (انك لو جافيت بين حنكيك فبالغت ثم قلت : قق قق ، لم تر ذلك مخلا بالقاف ولو فعلته بالكاف وما بعدها من حروف اللسان أخل ذلك بهنّ » (٦٧) فهذه تجربة يمكن أن يجربها أي انسان ، ويرى أن القاف هي التي وصفها سيبويه وليست كافا مجهورة ، أو غير ذلك .

القاف والطاء :

أول من أثار مشكلة الاختلاف في صفة القاف والطاء بين الجهر والهمس ، على مانعلم المستشرق الالماني براجستراسر ، في محاضراته التي القاها في الجامعة المصرية سنة ١٩٢٩ م ونشرت في السنة نفسها بعنوان « التطور النحوي للغة العربية » . وقد أعاد نشرها الدكتور رمضان عبدالتواب عام ١٩٨٢ في الرياض ، والى هذه النشرة ستكون احالاتنا على الكتاب وقد عمل المؤلف جدولا للاصوات العربية (٦٨) ، على ماوصفه علماء العربية ، وردت فيه القاف والطاء تحت صفة الجهر والشدّة . ثم قال « ونفهم من الجدول والصفات

---

(٦٥) الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني ص ٣٠٧ .
(٦٦) الكتاب ٤٢٨/٢ .
(٦٧) الكتاب ٤٢٧/٢ .
(٦٨) التطور النحوي ، ص ١٥ .

المذكورة بعده ومن جدول المخارج ، أن بعض الحروف يختلف نطقه الحالي عنه في الزمان القديم ، وهي : ق ، ج ، ط ، ض ، ظ . أما القاف فهي في العادة اليوم مهموسة لكنها في الجدول مجهورة ، كما هي الان عند بعض البدو . والطاء أيضا مهموسة اليوم ، مجهورة في الجدول ، والفرق بينها وبين القاف أن نطق القاف لايزال باقيا في بعض الجهات ، ونطق الطاء العتيق قد انمحى وتلاشى تماما » (٦٩) . وقد عقب د . رمضان عبدالتواب على العبارة الاخيرة في الحاشية بقوله : « لابل يسمع بوضوح في بعض جهات اليمن » ، واستشهد بما قاله المستشرق أ . شادة في محاضرته : « علم الاصوات عند سيبويه وعندنا « والذي يتجه لي في هذا أن « براجستراسر » أراد بالقاف العتيقة المجهورة والتي سمعها من بعض البدو الكاف المجهورة ، اى صوت (گ) ، اذ لا نشك في انه كان يسمع القاف في قول المصريين : القاهرة ، وكذلك مايلفظه قراء القرآن في مصر ، وهذه هي القاف التي ترجح لدينا انها القاف العربية القديمة ، لأنه لايتصور ان يجمع قراء القرآن في كل بلاد الاسلام على هذا الصوت ، وهم يتلقون القراءة مشافهة من جيل الى جيل ، ثم نزعم أنه ليس الصوت القديم مع ان الكلمات التي بالقاف تلفظ في لهجاتهم المحلية لفظا مختلفا ، فالقاف في أول « قال » مثلا ، تصبح همزة عند المصريّ وكافا عند الفلسطيني ، وكافا مجهورة عند العراقي ، وهي بالصوت الفصيح عندهم جميعا اذا كانوا يقرؤون القرآن ، أو أي نص فصيح آخر ، كما نذكر هنا بالتجربة التي أوردها سيبويه في نطق القاف ، وذكرناها آنفا ، فانت اذا فتحت فمك بأوسع مايمكن ، ثم حاولت نطق القاف الفصيحة ، أمكنك ذلك فتقول : قَقْ ، ولاتجد ذلك مخلاً بالصوت ولكنك لو حاولت ذلك مع الكاف المجهورة ، وهي القاف البدوية التي أشار اليها براجسترسر لم

(٦٩) م. ن ص ١٦ ـ ١٧ .

تستطع الاتيان بها .

اما الطاء ، فلانشك في ان مشكلتها اعقد من القاف قليلا اذ ليست هناك تجربة لنطقها تجعلها منفردة ، ويصح الاستدلال بها . اما هذه الطاء المجهورة التي اشار الى وجودها « شادة » كما ذكرنا قبل قليل ، وكذلك ماذكره « كانتينو » من وجود الطاء المجهورة في بعض لهجات اليمن ، وكذلك في بعض اللهجات العربية شرقي « بحيرة تشاد » (٧٠) فهي دال مطبقة ، وهي بالضاد المصرية أشبه ، ان لم تكن هي هي ، وقد سمعت بعض أهل « الصومال » ينطق هذا الصوت فطلبت اليه أن يقرأ هذه الكلمات طاهر وظاهر ، وضارب ، فنطق الصوت الاول منها جميعا بالضاد المصرية ! .

وهذا الذي أورده « براجستراسر » وتبعه فيه كل الذين تحدثوا عن الهمس في القاف والطاء ، مبني على مصطلح الجهر والهمس عند المحدثين لاعند القدماء . فالمجهور عند المحدثين (٧١) هو الذي يصحبه صوت خارج من الحنجرة من اهتزاز الوترين الصوتيين ، والمهموس هو الذي ينعدم معه هذا الصوت .

واهتزاز الوترين وعدمه في تحديد الجهر والهمس في الحرف ، غير منظور اليه في هذين المصطلحين ، عند القدماء . وليس صحيحا أن يحاكم القدماء على وفق المعنى الذي وضعناه لمصطلح وافقناهم فيه في لفظه وخالفناهم في معناه . بل الصواب أن ننظر في مرادهم من المصطلح ، ثم نرى أكانوا على صواب فيما وصفوه أم لا .

المجهور عند القدماء على ماذكره سيبويه : « حرف أشبع الاعتماد في موضعه ومنع النَفَس أن يجرى معه حتى ينقضي الاعتماد عليه ويجرى

(٧٠) دروس في علم أصوات العربية ، ص ٥٠ ـ ٥١ .
(٧١) التطور النحوي ص ١٣ .

الصوت . . ، وأما المهموس فحرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى النَفَس معه . وأنت تعرف ذلك اذا اعتبرت فرددت الحرف مع جري النَفَس ، ولو اردت ذلك في المجهورة لم تقدر عليه » (٧٢) . فضابط الجهر والهمس عند سيبويه جري النفس مع الحرف أو عدمه ، وعلى هذا جمهور علماء العربية . وقد نقل « د . ابراهيم أنيس » من شرح السيرافي مايمكن ان يعين في جمع الجوانب المختلفة لتحديد ضابط الجهر والهمس ، فقد ذكر السيرافي ان الاخفش قال : « سألت سيبويه عن الفصل بين المهموس والمجهور ، فقال : المهموس اذا اخفيته ثم كررته ، أمكنك ذلك ، وأما المجهور ، فلا يمكنك ذلك ، ثم كررسيبويه التاء بلسانه واخفى ، فقال : الاترى كيف يمكن وكرر الطاء والدال ، وهما من مخرج التاء فلم يمكن . . » (٧٣) فاذا ضممنا الى هذا النص ماورد في تفسير المهموس من أنه الذي يجرى به النفس امكن أن نضع الضابط التالي :

لتمييز المهموس من المجهور اتبع الطريقة الاتية :

١– اخفض صوتك بالحرف الى ادنى مانستطيع – الاخفاء .

٢– ردد الصوت بالحرف – التكرار –

٣– أجر النَفَس وأنت تقوم بهذه المحاولة – جري النفس .

فاذا سمع الصوت الذي يسمع اذا لفظ وحده بوضوح وبصوت مرتفع ، فالحرف ، مهموس ، اى اذا لم تؤد التجربة الى تحول صوت الحرف ، فهو مهموس اما اذا قمت بالتجربة لنطق حرف معين ، وأدى خفض الصوت به وتكراره مع جري النفس الى سماع صوت آخر ، فالصوت الذي حاولت

(٧٢) الكتاب ٢/٤٠٥ .

(٧٣) الاصوات اللغوية ، ص ١٢٠ .

نطقه قد تحول الى صوت مجهور . ولو جربت ذلك مع الثاء لسمعتها ثاء ، كما هي . ولو جربت ذلك مع الذال فسوف تسمعها ثاء أيضا ، لا ذالا .

وقد جربت ذلك مع الحروف المهموسة جميعا ، فأمكنني ذلك ، وفهمها السامع ، وميز اصواتها . وجربته مع الطاء فسمعت تاء ، ومع القاف فسمعت خاء . اما الهمزة وهي الحرف الثالث الذي وصفه علماؤنا بالجهر ، وهو مهموس بضابط المحدثين لأن الوترين لايهتزان معها ، فلايمكن اجراء النفس معها ابتداء ، لأنها تكون بانطباق الوترين انطباقا تاما . وهذه التجربة تثبت أن الطاء والقاف والهمزة لاينطبق عليها ضابط الهمس فهي اذن مجهورة بضابط القدماء ومعنى ذلك ايضا ان الصوت الشائع الفصيح اليوم للقاف والطاء هو الصوت القديم لهما ، وان اختلفنا مع القدماء في صفتهما بناء على اختلاف المراد بالجهر والهمس . وبهذا نكون قد قدمنا ثبات الصوتين بين يدي دعاوى تحول القاف عن الكاف المجهورة ، والطاء عن الضاد المصرية ، وهو ما سنفصل القول فيه فيما يأتي :

دعاوى التحول :

ذكر « برجستراسر » (٧٤) . كما أشرنا قبل قليل ، ان الطاء العتيقة قد انمحت وتلاشت تماما من اللسان العربي ، اليوم ، وان القاف ماتزال باقية عند بعض البدو ، على ان نطقها عند العرب عموما يختلف عما كان قديماً ، وكذلك اختلف نطق العرب اليوم صوت الجيم ، اذ هي كما وصفها علماء العربية بسيطة مجهورة شـــديدة شجرية ، وهي عند المصريين بهذه الصفات الا ان مخرجها مخرج الكاف عندهم ، والجيم « هي ثالث الحروف التي لفظها العتيق غير لفظها الحاضر . وأما رابعها وهي الضاد . فهي الان شديدة عند

(٧٤) انظر التطور النحوي ، ص ١٦ ــ ٢٠ .

اكثر اهل المدن ، وهي رخوة في الجدول ، كما هي الان عند اكثر البدو ، ومع ذلك فليس لفظها البدوى الحاضر نفس لفظها العتيق لأن مخرج الضاد في جدول المخارج من حافة اللسان الى طرفه ، ونطقها عند اهل المدن نشأ من هذا النطق البدوى باعماد طرف اللسان على الفك الاعلى بدل تقريبه منه فقط ، فصار الحرف بذلك في نطقه شديدا، بعد ان كان رخوا . . آخر الحروف الخمسة . . . الظاء ، وهي الان عند كثير من أهل المدن أحد حروف الصفير وعند سائر العرب مثل ذال مطبقة وهذا هو نفس نطقها العتيق » (٧٥) .

وهذا الذي اورده برجستراسر عام ١٩٢٩ م كان منبها لمن كتب بعده فتكرر الكلام على هذه الحروف ومخالفتها النطق القديم ، ونريد قبل الخوض في الكلام على التحول الصوتي وتعليله وقبوله أو رفضه ، أن نضع ضابطا للقول بالتحول أو الثبات في اى صوت من الاصوات التي نبحثها ، وقد رأينا أن خير مايضبط اعطاء اليد بالتحول او عدمه أن ينظر في الصوت الذي ندرسه كيف ينطقه قراء القرآن المجيدون في قراءتهم ، وكيف ينطقون الصوت ذاته في لهجاتهم المحلية ، فان وجدناهم يتفقون على نطقه في القرآن ، وان اختلفوا فيه في لهجاتهم ، كان ذلك دليلا على ان النطق المجمع عليه نطق موروث بالتلقين والتلقي . وان وجدناهم يختلفون في نطقه في قراءة القرآن ، دل ذلك على تحول الصوت — ، ويكون النظر الى ذلك كله في ضوء ماأورده علماء العربية من وصف لمخارج الحروف وصفاتها .

اما القاف فاختلاف صفتها بين الجهر عند القدامى ، والهمس عند المحدثين جعلهم يذهبون الى انتقال المخرج ، وأنها في الاصل كانت كافا مجهورة (گ) ، أى انها رجعت الى الوراء قليلا من أقصى الحنك الصّلب الى اللهاة ، وقد أورد د . ابراهيم أنيس احتمالين لاصل القاف الفصيحة ، الاول : أن

(٧٥) م. ن ص ١٨ — ١٩ .

تكون نوعا من الغين، الثاني : أن يكون صوت (گ) قال : « تطورت القاف في اللهجات العربية الحديثة تطورا ذا شأن لانستطيع أن نؤكد كيف كان ينطق بها الفصحاء من عرب الجزيرة في العصور الاسلامية الاولى ، الا أننا نستطيع ان نستنتج من وصف القدماء لهذا الصوت انه ربما كان يشبه تلك القاف المجهورة التي نسمعها الان بين القبائل العربية في « السودان » وبعض القبائل في جنوب « العراق » . اذ نسمعها منهم نوعا من الغين . . ومن الممكن أن نفترض للقاف القديمة فرضا ربما كان اكثر احتمالا ، هو انها كانت تشبه الجيم القاهرية . .

ويستأنس لهذا الرأى بنطق معظم البدو الان للقاف على هذا النحو » (٧٦) .

والذي نراه بناء على الضابط الذي أوردناه قبل قليل ، أن الصوت لم يدخله تغيير في الفصيح . فالقاف حرف لهوي شديد ، وهو مجهور على وفق ضابط الجهر الذي وضعه القدماء وهو عدم جريان النفس عند اخفاء الحرف وترديده ، فقرّاء القرآن اليوم مجمعون على نطق واحد ، على ان الصوت قد تقدم في لهجات بعضهم ، وتأخر في لهجات الاخرين ، وجاء مهموسا عند قوم ، مجهورا عند آخرين . فقد رجع صوت القاف الفصيحة الى الوراء كثيرا عند بعض المصريين حتى جاء مخرجه من الوترين الصوتيين بانطباقهما ، فصار همزة « قرب ــ أرب ، دقة ، دأة ، يدق ــ يدأ » ، وتقدم عند بعض المصريين ــ أهل الصعيد مثلا ــ قليلا نحو الحنك الصلب ، فآل الى كاف مجهورة « قال ــ گال ، دقة ــ دگة ، يدق يدگ » ، وهي كذلك عند اكثر العراقيين ، وأهل الجزيرة والخليج . ومن هذا الموضع نفسه الا انها مهموسة عند اكثر الفلسطينين ، اى أنها صارت كافا فصيحة « قال ــ كال ، دقّة ــ دكة ، يدق ــ يدك » ، وبقيت في موضعها وعلى صفاتها التي ذكرها

(٧٦) الاصوات اللغوية ، ص ٨٤ ــ ٨٥ .

علماء العربية عند بعض العراقيين مثلا كما في لهجة أهل الموصل حيث بقي لهويا شديدا مجهوراً بضابط القدماء للجهر ، ومع هذا الاختلاف نجد الجميع يتفقون على نطقها في قراءة القـــرآن بصورة واحدة ، وهي بالوصف الذي أورده علماء العربية ، فهذا دليل على ثبات الصوت في الفصيح ، وعدم تحوله ، فاذا انضاف الى ذلك التجربة التي ذكرها سيبويه ، وأوردناها قبل قليل في نطق القاف كان ذلك أدعى الى الاطمئنان الى القول بثبات صوت القاف ، وهو ماينبغي ان يحافظ عليه في الفصيح ، سواء في قراءة القرآن الكريم ، أو غيره .

وأما الطاء فاختلاف صفتها أيضا بين الجهر عند القدماء والهمس عند المحدثين أدى الى القول باختلاف الصوت وتحوله . وقد ذهب براجستراسر الى أن نطقها القديم « قد انمحى وتلاشـــى تماما » (٧٧) واعترض د . رمضان عبدالتواب على ذلك في الهامش قائلا : « لابل يسمع بوضوح في بعض جهات اليمن عند قولهم الضبيب والضباخ ، في الطبيب والطباخ ، وقد روى المستشرق « شادة » عنهم مضر وقضع في مطر وقطع « ومثل ذلك ماذكره كانتينو » من وجود الطاء المجهورة في لهجـــات اليمن حيث قال : « ان أ . روسي » أثبت من جديد وجود دال مفخمة في لهجات اليمن تمثل الطاء القديمة . . ننتبه الى ماذكره « كانبمفماير » من أن هناك في اللهجات العربية بالوادي شرقي بحيرة « التشاد » طاء تنطق نطقا مجهورا ، اى كالدال المفخمة » (٧٨) . وهذا الذي اطلق عليه الطاء المجهورة ، هو نطق الطاء كالدال المفخمة ، كما ذكر « كانتينو » . وقدسمعت ذلكمن بعض الطلبة في الدراسات العليا من

---

(٧٧) التطور النحوي ، ص ١٧ .

(٧٨) دروس في علم أصوات العربية ص ٥٠ ــ ٥١ .

الصومال وقد لفت نظرى أنه ينطق الطاء والظاء والضاد بصوت واحد ، هو الدال المفخمة ، أو الضاد المصرية ، فطلبت اليه أن يقرأ هذه الالفاظ « طلب ، ظلم ، ضرب » ، ولم يكن يدرك غرضي ، فقرأها : دلب ، دلم ، درب بالضاد المصرية ، وهذا الخلط في الصوت يجعل الباحث يتردد كثيرا قبل أن يردد عبارة القطع بأن هذه الدال المفخمة ، هي الطاء القديمة . وقد استدل « د . ابراهيم أنيس » على ان الطاء القديمة كانت دالا مفخمة بكلمة أوردها سيبويه ، وبما يسمع من نطق اهل اليمن ، قال :

« وليس من المحتمل ان يكون القدماء قد خلطوا في وصفهم بين صفتي الجهر بالهمس فيما يتعلق بهذا الصوت ، ولكن الذي ارجحه أن صوت الطاء كما وصفها القدماء كان يشبه الضاد الحديثة لدى المصريين . . . ويؤيد هذا مانسمعه الآن من نطق أهل اليمن . . كما يؤيده قول ابن جني في « سر الصناعة » نقلا عن سيبويه في كتابه :

« لولا الاطباق لصارت الطاء دالا » . . (٧٩) . وقد استدل « كانتينو » بكلمة سيبويه ايضا ، قال : « ولما كان معنى كلمة مجهور بالضبط موضعا للخلاف وجب أن نطرح ترتيب النحاة العرب الطاء في الحروف المجهورة جانبا ، الا ان هناك في كتاب سيبويه (٢ / ٥٥) فقرة ترجح فيما يبدو نعت الطاء بكونها مجهورة بالمعنى الحديث ، وذلك قوله :

« ولولا الاطباق لصارت الطاء دالا » (٨٠) .

وعبارة سيبويه اذا أخذت على ظاهرها تقطع بأن صوت الطاء التي وصفها العلماء كان دالا مفخمة ، أى كالضاد المصرية ، الا ان الامر به حاجة الى

---

(٧٩) الاصوات اللغوية ، ص ٦٢ .

(٨٠) دروس في علم أصوات العربية ، ص ٥٠ ، والاحالة على كتاب سيبويه في ط أوربة ، والنص في طبعة بولاق ، ٢/٤٠٦ .

فضل تأمل ، ذلك ان علماء العربية ذكروا ثلاثة أصوات بصفة الجهر ، وهي ليست مما يهتز معه الوتران الصوتيان ، هي الهمزة ، والقاف ، والطاء . ولذلك فهذه الثلاثة الاصوات تمثل مشكلا واحدا ، لاأرى صحة تجزئته . وقد ثبت ان الهمزة والقاف لم يدخلهما تغيير في الصفة أو المخرج عما كانا عليه يوم وصفت اصوات العربية .

اما الهمزة فما وجدنا أحدا أثار شيئا يتعلق بمخرجها ، وانها تكون بانطباق الوترين ثم انفصالهما فجأة ، وانطباق الوترين غير اهتزازهما ، ولذا فهي مهموسة بضابط المحدثين ، ولكنها مجهورة بضابط القدماء ، لان اغـلاق الوترين مجرى النَفَس يستحيل معه أن تنطق الهمزة مع جريه . ولم يقل احد على ما نعلم إن همزة اليوم غير همزة العرب يوم وصفت الاصوات . فالهمزة صوت ثابت ، وصفته مختلف فيها بين المحدثين والقدماء . وأما القاف ، فالتجربة التي ذكرها سيبويه في نطقها لا يمكن أن تنطبق على اى صوت من اصوات العربية سواها ، فأنت لو فتحت فمك ، وجافيت بين حنكيك الى اقصى ماتستطيع ، وحاولت نطق القاف الفصيحة ، أمكنك ذلك ، ولو تكلفت نطق اى صوت آخر ، وأنت في هذه الحال ، ما استطعت . والقاف وصفت بأنها مجهورة لانها لايجرى معها النَفَس ، وهي عند المحدثين مهموسة ، لانها لايهتز معها الوتران الصوتيان . فاذا اطمأننا الى ثبات صوتين مع الاختلاف في صفتهما ، كان ذلك مدعاة للقول بثبات الصوت الثالث ، لان المشكلة واحدة في الثلاثة .

واما عبارة سيبويه فالذي يتجه لي في تفسيرها أن التنظير الشكلي فيها قد طغى على التطبيق الصوتي ، قال : « ولولا الاطباق لصارت الطاء دالا والصاد سينا والظاء ذالا ، ولخرجت الضاد من الكلام لانه ليس شيء من موضعها غيرها » (٨١) فالطاء عنده فيها صفتان الجهر والاطباق . فاذا ذهب الاطباق

(٨١) الكتاب ٢/٤٠٦ .

بقي الجهر والحرف المجهور من مخرج الطاء هو الدال ، فلاريب تؤول الطاء الى دال اذا ذهب عنها الاطباق وبقي الجهر ، كما قال ان الصاد اذا ذهب عنها الاطباق ، صارت سينا ، اذ الصاد والسين مهموستان ، والفرق بينهما الاطباق . فاذا ذهب صارت الصاد سينا . وكذلك القول في الظاء والذال ، فهما مشتركتان في صفة الجهر ومختلفتان في الاطباق . فاذا ذهب الاطباق ، صارت الظاء ذالا ، لان الصوت المجهور غير المطبق من مخرج الظاء هو الذال ، ولو ذهب عن الصوت من هذا المخرج الاطباق والجهر ، اذن لصار الصوت ثاء . وهذا ايضاح التقابل أو التنظير الشكلي في هذه الاصوات التي ذكرها سيبويه : ت ، د ، ط ، د .

تولد هذه الاصوات باتصال أول اللسان باصول الثنايا اتصالا تاما لا يسمح للهواء بالمرور ، ثم ينفصل ، فهي أصوات انفجارية (شديدة) ، فاذا لم يكن اطباق بارتفاع وسط اللسان نحو سقف الفم ؛ ولم يكن جهر باهتزاز الوترين ، سمع الصوت الذي رمز له بـ (ت) فاذا اهتز الوتران ، سمع صوت (د) . فاذا صحب الاهتزاز ارتفاع وسط اللسان نحو طبق الفم ، سمع صوت (دِ) (الضاد المصرية) فادا لم يهتز الوتران الصوتيان ، وارتفع وسط اللسان نحو طبق الفم ، سمع صوت (ط) ، وهكذا نجد النظير المطبق للتاء هو الطاء ، وللدال هو الضاد المصرية . هذا بناء على مفهوم الجهر والهمس عند المحدثين ، فاذا نظرنا الى الاصوات بناء على معنى الجهر والهمس عند سيبويه ، وأقمنا المقابلة الشكلية كان كما يأتي :

ت = + همس (— جهر) ، — اطباق .

د = (— همس) + جهر ، — اطباق .

ط = (— همس) + جهر + اطباق .

فالطاء التي وصفها سيبويه بالجهر ؛ تقابل من الناحية الشكلية صوت الدال اذا نظرنا اليهما من حيث الاطباق وعدمه ، فكلتاهما مجهورة ، الا ان احداهما

مطبقة والاخرى غير مطبقة ، ولذلك قال : « اذا ذهب الاطباق من الطاء ، صارت دالا » .

وهكذا نفهم كلام سيبويه : « لولا الاطباق ، لصارت الطاء دالا ، والصاد سينا والظاء ذالا » . فالطاء والدال مجهورتان عنده ، وهما من مخرج واحد ، والفرق بينهما الاطباق ، فـاذا ذهب الاطباق عادت الطاء دالا ، والصاد والسين مهموستان وهما من مخرج واحد ، والفرق بينهما الاطباق في الصاد ، فاذا ذهب ، عادت سينا ، والظاء والذال مجهورتان ، وهما من مخرج واحد ، والفرق بينهما الاطباق في الظاء . فاذا فقدت الاطباق عادت ذالا . وبهذا ايضا نفهم قوله : « ولخرجت الضاد من الكلام ، لانها ليس شيء من موضعها غيرها » . فالضاد كما وصفها سيبويه حرف مجهور رخو (احتكاكي) مطبق ، يخرج من بين أول حافة اللسان وما يليه من الاضراس (٨٢) وهو بهذا الوصف ليس من مخرجه حرف مجهور غير مطبق حتى يصير اليه اذا فقد الاطباق كما وقع للظاء والصاد والطاء .

ولاشك في أن التفاتة « د . ابراهيم أنيس » التفاتة لها قيمتها حين مال الى ان الطاء القديمة تشبه الضاد المصرية ، لان هذه الضاد اذا ذهب اطباقها آلت الى دال . ولكن يشكل على رأيه ، اجماع قراء القرآن على نطق الطاء بصوت واحد ، وهو بهذا النطق مجهور على وفق ضابط القدماء للجهر ، لان النَفَس لايجرى معه فاذا ذهب منه الاطباق بقي الجهر . والمجهور غير المطبق من مخرج الطاء هو الدال . فلاجرم كنا اميل الى القول بثبات صوت الطاء ، مع ما قدمناه من ضرورة النظر الى صوت الهمزة والقاف والطاء على انها تمثل مشكلا واحدا لايتجزأ ، زد على ذلك أن الصوت الذي يراه صوت الطاء القديمة ، وهو الضاد المصرية ، يجرى على السنة كثير من العرب اليوم في مصر والمغرب

(٨٢) الكتاب ٢/٤٠٤ ، ٤٠٥ .

تعبيرا عن الضاد القديمة ، وليس من السهل ايجاد مسوغ صوتي ، لتحول هؤلاء عن هذا الصوت حينما كان يعبّر به عن الطاء وعودتهم اليه ليعبّروا به عن صوت الضاد ، واستحداثهم صوتا آخر للطاء ، أى ان المتكلم كان يعبّر عن الحرف الاول في « طالب » بصوت خاص ، هو الضاد المصرية على رأى « د . ابراهيم أنيس » ، ويعبّر عن الحرف الاول في ضرب بصوت لم يبق له وجود في ألسنتنا،فما الذي جعل المتكلم ينقل صوت الطاء ليعبّر به عن الضاد ، ثم يستحدث صوتا جديدا للطاء ؟ لقد كان المعقول أن يقال ان صوت الطاء بقي على حاله ، واستحدث للضاد صوت آخر لصعوبته . وهذا الذي كان على مانراه ، حيث تحول صوت الضاد القديم الى دال مفخمة (الضاد المصرية) عند قوم من العرب ، والى ظاء عند آخرين .

ان التسليم برأى « د . ابراهيم أنيس » يدعو الى القول بأن العرب هجروا هذا الصوت لالعلة ، واستعملوا مكانه التاء المطبقة ، ثم عاد بعضهم الى الصوت نفسه ليعبر به عن صوت آخر ، وهو أمر يخالف سنن اللغات في التحول الصوتي يقول « فندريس » ، وهو يتكلم على تغير الاصوات اللغوية : « ان التغير مطلق .

ومعنى ذلك أنه يتحقق في صورة تامة لامردّ منها ، فليست المسألة خلقا اختياريا يضيف الى النظام عنصرا جديدا ، بل انها مسألة تحوّل في عنصر موجود ، هذا التحول يفترض أن الطفل قد عجز عن تكرار الصوت المسموع تكرارا مضبوطا ، بل انه لما يلفت النظر أن الصوت الذي استبدل به غيره يصير اشق الاصوات الغريبة على النظام وأعسرها على من يريد النطق به » (٨٣) . وكلام « فندريس » على عسر النطق بالصوت المجهور يجد تصديقه

(٨٣) اللغـة ، ص ٦٥ .

الواضح في محاولة أى عربي نطق الضاد الفصيحة اليوم كما وصفها العلماء في كتب العربية .

قد يحتج لرأى « د . ابراهيم أنيس » بأنه يقويه ان الاصوات التي سميت لثويّة ، وهي : الثاء ، والذال ، والظاء ، قد رجع اللسان في النطق بها الى الوراء ، فصارت نطعية في بعض اللهجات العربية الحديثة . كما نجد ذلك في اكثر مدن المغرب غير الشمالية ، فصارت الثاء تاء ، والذال دالا ، أى ان اللثوى المهموس آل الى نطعي مهموس والمجهور الى مجهور . فالمتوقع أن يؤول المطبق المجهور اللثوي الى مطبق مجهور نطعي ، مثل أخويه . وقد آل صوت الظاء الى دال مفخمة (ضاد مصرية) مما يوحي بأن هذا الصوت هو صوت الطاء القديمة ، لانه الحرف النطعي المطبق الذي وصف بأنه مجهور . الا ان هذا الاحتجاج على قوته يضعفه مابين الضاد والظاء من تعاور قديم وتداخل مما يرجح تحوّل الظاء الى ضاد فصيحة اولا ثم الى دال مفخمة (ضاد مصرية) ، كما تحولت الالفاظ التي بالضاد القديمة الى الضاد المصرية . وكذلك يضعفه ماأوردناه ونورده من ادلة نفي تحوّل صوت الطاء القديمة . فالكلام على حقيقة الطاء مرتبط كما قدمنا بالكلام على حقيقة الهمزة والقاف لان مشكل الثلاثة واحد هو صفة الجهر والهمس بين القدماء والمحدثين فاذا اسعفتنا النصوص بتقرير حقيقة القاف مع ماقدمناه من الاجماع اليوم على حقيقة الهمزة ، كان في ذلك الدليل على حقيقة الطاء . وقد وجدنا من النصوص ما يؤيد ثبات صوت القاف على مانطقه اليوم . فمن ذلك ماأوردناه عن سيبويه من تجربة نطق القاف مع تجافي الحنكين ، ومنه مانجده من اغفال القدماء الكلام على وجود قاف مستحسنة أو غير مستحسنة في لغة العرب . فسيبويه تكلم على هذه الحروف ، ولم يذكر شيئا عن القاف . وكذلك فعل المبرد (٨٤).

(٨٤) انظر الكتاب ٢/٤٠٤ ، والمقتضب للمبرد ، تحقيق محمد عبدالخالق عضيمة ط المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية ، القاهرة ١٣٨٥هـ ، ١/١٩٤ .

وفي كلام نقله ابن فارس عن ابن دريد مايشير الى قاف تميمية حيث قال :

« . . . ابن دريد يقول . . . فأما بنو تميم فانهم يلحقون القاف بالكاف ، (٨٥) حتى تغلظ جـــدا ، فيقولون : القيـــوم ، فتكون بين الـــكاف والقاف ، وهذه لغة تميم ، قال الشاعر :

ولا اكول لـگدر الـــگوم گـد نضجت

ولا اگول لباب الدار مگفول (٨٦)

ونحن لو نطقنا الثلاثة الاصوات : ق ، گ ، ک ، لوجدنا القاف أعمق الثلاثة ، يليها صوت (گ) ، أو الكاف المجهورة ، فالكاف . وهما وإن كانا من مخرج واحد الا ان صوت الجهر يجعل الناطق يحس أن المجهور أعمق ، لاهتزاز الوترين ، فتكون الكاف المجهورة بين القاف والكاف ، وهي قاف اكثر العراقيين اليوم في لهجتهم العامية ، ويقوى كون القاف التي ننطق بها اليوم هي القاف القديمة ، وليست القديمة كافا مجهورة وصف سيبويه مخارج الحروف ، وذلك أنه جعل الحروف التي من مخرج واحد مضمومة بعضها الى بعض ، والمختلفة المخرج منفردة . وقد أفرد القاف عن الكاف ، فلو كانت القاف كافاً مهجورة ، لا وردهما في موضع واحد ، وهذا تفصيل ذلك ، قال :

« . . . فللحلق منها ثلاثة ، فأقصاها مخرجا الهمزة ، والهـــاء ، والالف . ومن اوسط الحلق مخرج العين والحاء ، وأدناها مخرجا من الفم الغين والخاء ، ومن اقصى اللسان وما فوقه من الحنك الاعلى مخرج القاف ، ومن اسفل من

---

(٨٥) في المطبوع : باللهاة ، وهو خطأ ، والتصحيح من «جمهرة اللغة» لابن دريد، ط حيدرآباد : الدكن ، ١٣٤٤هـ ، ١/٥ .

(٨٦) الصاحبي ، ص ٥٤ .

موضع القاف من اللسان قليلا ومما يليه من الحنك الاعلى مخرج الكاف ، ومن وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الاعلى مخرج الجيم والشين والياء . . . » (٨٧) . فالهمزة من الوترين بانطباقهما ، والهاء منهما باقترابهما حتى يحدث الهواء المار بينهما خفيفا ، لايهتز له الوتران ، والالف هواء يهتز له الوتران ، ثم الحاء والعين وهما حرف واحد بصفتين . فاذا كان مهموسا فهو الحاء ، واذا اهتز معه الوتران صار عينا ، ومثلهما الخاء والغين ، ومثل ذلك الجيم والياء والشين ؛ فهي تختلف في الصفات ، فالجيم شديدة مجهورة ، والياء رخوة مهموسة مع مافيها من التفشي ، ومثل ذلك الظاء والذال والثاء . . الخ ، وقد جمع كل ذلك في مواضعه . ويلاحظ انه جعل الكلام على القاف والكاف منفصلا ، مما يدل على أنهما لم تكونا عنده مثل الحاء والعين أو الخاء والغين ، مما يبعد احتمال كون القاف الفصيحة كافا مجهورة ، بل ان ابن الجزرى يحذر من الاتيان بالقاف التي كالكاف الصّمّاء ، ويعني الكاف المجهورة ، قال : « والقاف فليتحرز على توفيتها حقها كاملا ، وليحتفظ مما يأتي به بعض الاعراب وبعض المغاربة في اذهاب صفة الاستعلاء منها حتى تصير كالكاف الصمّاء . . . والكاف فليعتن بما فيها من الشدة والهمس ، لئلا يذهب بها الى الكاف الصمّاء الثابتة في بعض لغات العجم ، فان ذلك الكاف غير جائزة في لغة العرب » (٨٨) . وهكذا اذا ثبت أن صوت القاف لم يدخله تغيير مثل الهمزة ، وقد وصف بالجهر ، وهو اليوم مهموس على ما يراه المحدثون ، فلابدّ أن تكون الطاء مثلهما مادام الضابط مختلفا .

وقد اشار « د . تمام حسان » الى طاء اطلق عليها الطاء المهموزة (كالتي تنطق في بعض لهجات « الصعيد » ، ومعنى كون الطاء مهموزة هنا أنها صحبها اقفال الاوتار الصوتية حين النطق ، فأصبح عنصر الهمز جزءا لايتجزأ

(٨٧) الكتاب ٤٠٥/٢ .
(٨٨) النشر في القراءات العشر ٢٢١/١ .

من نطقها ، هذه الطاء مهموسة قطعا . لان اقفال الاوتار الصوتية لايسمح بوجود الجهر ، ويرجح عندى أن الطاء العربية الفصحى القديمة التي وصفها القراء كانت في صوتها وفي نطقها بهذا الوصف . ثم لغرابة صوتها على السمع أخطأ النحاة والقراء فجعلوها مجهورة في دراستهم ، وجعلوا الدال مقابلا مرققا لها » (٨٩) .

وهذا الذي ذكره « د . تمام » اقرب الى القول بأن الطاء كانت دالا مفخمة (ضادا مصرية) ، ثم انتقل الصوت منها الى الضاد الفصيحة . واقفال الوترين الصوتيين يحدث في الهمز ايضا كما ذكر . وقد عد علماء العربية الهمزة من الحروف المجهورة ، وذلك بناء على ضابطهم في عدم جرى النَفَس بالصوت ، ويقوى ذلك أن الطاء من حروف القلقلة وهي (قطب جد) ، وهي جميعا تشترك في صفتي الجهر والشدة . وقد اضاف اليها بعضهم كما نقل « د . تمام » الهمزة ، لما فيها من الجهر والشدة ، وينبغي أن ينظر الى مصطلح الجهر من خلال الضابط الذي وضعه علماء العربية ، وليس من خلال الضابط الذي وضعه المحدثون كي نتمكن من تفهم أحكامهم التي ذكروها .

اما الضاد ، فقد ذكر علماء العربية صفتها وبينوا مخرجها (٩٠) بصورة تؤكد اضمحلالها من اللسان العربي اليوم فمن اول حافة اللسان وما يليها من الاضراس مخرج الضاد ، الا انك ان شئت تكلفتها من الجانب الايمن وان شئت من الجانب الايسر ، وهي حرف رخو مجهور مطبق ، والضاد التي ننطقها في العراق اليوم وفي عدد من البلاد العربية هي ظاء . أما المصريون وبعض اهل البلاد العربية الاخرى ، فالضاد عندهم دال مفخمة أو هي حرف

(٨٩) مناهج البحث في اللغة ، ١٢٢ ـ ١٢٣ .

(٩٠) انظر الكتاب ٤٠٥/٢ ، والمقتضب ١٩٣/١ ، وسر الصناعة ٥٢/١ ، ٦٩ ، ٧٠ .

من مخرج الدال مجهور مطبق شديد ، فهو يخالف الضاد القديمة في مخرجها وفي صفة الشدة التي فيها ، ومع ذلك فهي الصوت الذي نرى الاصطلاح عليه لنطق الضاد اليوم مادام الرجوع الى الضاد الفصيحة ليس ممكنا ، اذ نأمن بنطقه دالا مفخمة اللبس الذي نقع فيه عند نطقه ظاء ، كما في نطق : ضنّ وظنّ ، وضلّ وظلّ ، وما اشبه ذلك مما نرجىء البحث فيه الى موضعه من الكلام على البعد الواقعي في دراسة خاصة للتطور الصوتي في اللهجات العربية .

واما الظاء ونطقها زايا مطبقة ، فان ماقاله « برجستراسير » فيها لايتناول النطق الفصيح بل هو خاص باللهجات العامية ، وذلك ان نطقها واحد في الفصيح وعلى ألسنة قراء القرآن في البلاد العربية جميعها ، أما نطقها زايا مطبقة ، فلا نكاد نجد له أى اثر في الفصيح حتى عند اولئك الذين يشيع هذا الصوت على ألسنتهم في لهجاتهم المحلية .

وأما الجيم ، فنطقها الفصيح قائم عندنا في العراق وفي عدد من البلاد العربية ، وهو على ماوصفه علماء العربية حرف شجرى مجهور شديد ، الا ان الصوت بدأ يدخله التغيير في النطق الفصيح عند كثير من ابناء العرب حيث اشرب صوت الشين ، وهما من مخرج واحد ، مما يستدعي التنبه الى نطقه والمران على اللفظ الصحيح والتزامه . وحديث الجيم كحديث الظاء التي تنطق زايا مطبقة يكون الكلام عليه في البعد الواقعي في غير هذا المقام .

والذي نخلص اليه مما تقدم ان الذي دخله التغيير في اصوات العربية في الفصيح على سبيل القطع هو صوت الضاد القديم . واما ما سوى ذلك ، ففيه متّسع للبحث ، والراجح انه غير المتحول ، وان كانت ادلة التحول في بعضه قوية ، الاّ ان الادلة المعارضة أقوى ، ونرجو أن نكون قد أوردنا في تقرير ثبات هذه الاصوات مافيه مقنع ، والله سبحانه أعلم بالصواب .